حضور الآخر في الخطاب الرّوائي الجزائري
-قراءة في رواية شرفات بحر الشمال لواسيني الأعرج-

أ(ة).عائشة العشمي

جامعة يحيى فلرس المدية –الجزائر

ملخص:

لقد ساهمت الصّور الثقافية والأدبية في تعميق الهوّة الفاصلة بين **"الأنا"** العربي و**"الاخر"** الغربي على الرّغم ممّا حقّقته على المستوى التقني من تقريب المسافة بين هاتين الضفتين إذ لا يمكن أن ننكر ما تجلي مثل هذه الصّور الثقافية والأدبية من أبعاد واقعية لإنسان تقرّبنا منه الخاصية الإنسانية وتبعدنا عنه التوجّهات الثقافية المختلفة. إلاّ أنّ ذلك يجب ألا ينسينا أن هناك أبعاد أخرى تتجلّى من خلال هذه الصّور، وهي من اختلاق مخيّلتنا، ولا تربطها بالواقع صلة إلّا بالقدر الذي تستجيب فيه أحيانا لرغبتنا في تحقيق **"الأنا"** عبر رفضنا لـ الآخر المختلف.

من هنا، ونتيجة انشغالي بقراءة و دراسة بعض الأعمال الرّوائية الجزائرية جاءت فكرة دراسة أشكال حضور **الأنا** و **الاخر** في الخطاب الرّوائي الجزائري، و ذلك من خلال البحث في الأسباب التي جعلت **"الأنا"** الجزائري و **"الاخر"** الاوروبي في حالة صراع مستمر عكسته لنا معظم النصوص الرّوائية الجزائرية قد وقع اختيارنا على رواية **"شرفات بحر الشمال"** دون غيرها من الرّوايات الجزائرية لاستقراء أشكال حضور **"الأنا" و "الاخر"** في الخطاب الرّوائي الجزائري، لكونها تقوم على التوظيف المكثّف و الغني و المتنوّع لعدد من الشّخصيات الغربية التي تتوزّع في ثنائية الرجولة _ الأنوثة وتتنوّع لتطال وظائف و فئات اجتماعية و نماذج سلوكية و نفسية مختلفة.

من أجل ذلك حاولت هذه الدّراسة الإجابة عن الإشكالية التي يمكن أن نصوغها على النحو التالي: كيف قدّم لنا الرّوائي الجزائري العلاقة التي تجمع **"الأنا"** بـ**"الاخر"**؟ وفي أية صورة تجلّى لنا **حضور "الأنا" الجزائري و"الاخر" الاوروبي** في رواية "شرفات بحر الشمال" **لواسيني الاعرج؟**

تهدف هذه الدراسة إذن، إلى البحث في العلاقة الجدلية التي تجمع **"الأنا"** بـ**"الاخر"**، إذ سنحاول من خلال بحثنا هذا أن نجيب عن بعض الأسئلة المتعلّقة بحضور **"الأنا" و "الاخر"** في ثنايا العمل الرّوائي الجزائري، و كل ما قد تستدعيه العلاقة التي تجمع الطرفين من قضايا مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الفكري، صراع الانا، الاخر، الابداع الادبي، الروا ية الجزائرية.

Summary:

The relationship with the other is the base and the most important in the production of the image of self-ego: the ego. So, know the Me is done exclusively by his view through a different mirror of the Other that only happen necessarily to its existence. It is designed to establish the boundaries of the other and give specific features. That's Why The other is proof of the diversity of the ego, uniqueness and excellence in relation to it.

Returning to the field of Algerian novelist creativity, there is the significant presence of these two concepts in the Algerian novelist text, given the strong existing relationship between the Algerian Me with the European Other due to the phenomenon associated with the history of colonization.

To better illustrate the nature of the relationship that combines the Algerian Me with European Other and to highlight the forms of their presence in the novel novelist speech chorofat bahr e'chamal (the balconies of the North Sea) of waciney laaredj an example for the study and analysis we started this study the following paradox: how did the Algerian novelist speech present the relationship between the mixture with the Me with the Other? And in what form was the presence of the Algerian and European Other manifest in the novel "The balconies of the North Sea" of waciney laaredj?

Keyword: intellectual Speech, the Me conflict, the Other, creative writing, the Algerian novel.

مقدمة:

ساهمت الصّور التي تقدمها الاعمال الثقافية والأدبية في تعميق الهوّة الفاصلة بين "الأنا" العربي و"الاخر" الغربي على الرّغم ممّا حقّقته على المستوى التقني من تقريب المسافة بين هاتين الضفتين إذ لا يمكن أن ننكر تجلي مثل هذه الصّور الثقافية والأدبية من أبعاد واقعية لإنسان تقرّبنا منه الخاصية الإنسانية وتبعدنا عنه التوجّهات الثقافية المختلفة. إلاّ أنّ ذلك يجب ألا ينسينا أن هناك أبعاد أخرى تتجلّى من خلال هذه الصور، وهي من اختلاق مخيّلتنا، ولا تربطها بالواقع صلة إلّا بالقدر الذي تستجيب فيه أحيانا لرغبتنا في تحقيق "الأنا" عبر رفضنا لـ" الآخر" المختلف.

من هنا، ونتيجة انشغالي بقراءة ودراسة بعض الأعمال الرّوائية الجزائرية جاءت فكرة دراسة أشكال حضور "الأنا" و"الاخر" في الخطاب الرّوائي الجزائري، وذلك من خلال البحث في الأسباب التي جعلت "الأنا" الجزائري و"الاخر" الاوروبي في حالة صراع مستمر عكسته لنا معظم النصوص الرّوائية الجزائرية.

وقد وقع اختيارنا على رواية "شرفات بحر الشمال" دون غيرها من الرّوايات الجزائرية لاستقراء أشكال حضور "الأنا" و"الاخر" في الخطاب الرّوائي الجزائري، لكونها تقوم على التوظيف المكثّف والغني والمتنوّع لعدد من الشّخصيات الفرنسيّة التي تتوزّع في ثنائية الرجولة _ الأنوثة وتتنوّع لتطال وظائف وفئات اجتماعية ونماذج سلوكية ونفسية مختلفة.

وسيتمّ التّركيز في تحليل هذه الرّواية على دراسة أشكال حضور "الأنا" الجزائري ومقابلتها بأشكال حضور "الاخر" الاوروبي، من خلال الإجابة عن جملة من التساؤلات تدور في مجملها حول علاقة "الأنا" ب "الاخر" التي تجسّد الصّراع بين الإنسان والإنسان هذا الصّراع الذي يجعل كلاّ منهما "الاخر"، هو الكينونة الذاتية وتقويضها في الان نفسه.

من هنا يمكن اعتبار العلاقة بالآخر الأساس الأهم الذي يقوم عليه إنتاج الذات لصورة "الانا". وقد تحوّلت هذه العلاقة إلى موضوع بحث أدبي فضلا عن تحوّلها إلى موضوع فكري، و بذلك عُدِّ مفهوم "الأنا" و"الاخر" من أكثر المفاهيم إثارة للجدل سواء في بعده الدلالي الفلسفي أم الأدبي، ذلك أنّ لكل اخر تعريف خاص، فما يعيشه الفرد أو يقرأه هو اخر ذو معالم كثيفة، قد تكون عدوانّية إذا ارتبط بهذا الاخر في اللاوعي بقضايا الحروب والاستعمار، عندئذ يتحوّل إلى مادة لقضيّة يستغني العديدون عن حياتهم من أجلها، لاتقاء شرّه او التقليل من سطوته أو التّصدي له كما هي الحال في علاقة "الأنا" المستعمر "بالآخر" المستعمر في كثير من البلدان التي واجهت هيمنة الاستعمار بكل أشكالها: السياسية، والاقتصادية ن والثقافية، و الإعلامية.

تهدف هذه الدراسة إذن، إلى البحث في العلاقة الجدلية التي تجمع "الأنا" بـ"الاخر"، إذ سنحاول من خلال بحثنا هذا أن نجيب عن بعض الأسئلة المتعلّقة بحضور "الأنا" و"الاخر" في ثنايا العمل الرّوائي الجزائري، وكل ما قد تستدعيه العلاقة التي تجمع الطرفين من قضايا مختلفة.

وعليه سنحاول تحليل نظرة كلّ منهما إلى الاخر، والاستدعاء أهمّ العوامل التي تسبّبت في هذه الهوّة الموجودة بين الطرفين، كلّ ذلك من خلال تفكيكنا لأهم المرتكزات الفكرية والإيديولوجية التي تؤسِّس لنظرة الاخر الغربي للانا العربي، مع الحرص على وضعها في سياقها التاريخي و الثقافي الذي انبثقت منه ابتغاء المساهمة في تضييق مساحة سوء الفهم التي ما تفتأ تتّسع بين هذين العالمين: العربي والغربي، وفي تعزيز المجهودات التي تبذل من هنا ومن هناك من أجل تأسيس معرفة بالثقافات والشعوب، قائمة على التفهّم المتبادل لضرورة الاختلاف، وعلى رفض كل الإسقاطات التي من شأنها أن تختصر "الاخر" في مجموعة من الأحكام التي ترضي تضخّم "الأنا" الجمعي.

من أجل ذلك حاولت هذه الدّراسة الإجابة عن الإشكالية التي يمكن أن نصيغها على النحو التالي: كيف قدّم لنا الرّوائي الجزائري العلاقة التي تجمع "الأنا بـ"الاخر" ؟ وفي أية صورة تجلّى لنا حضور "الأنا" الجزائري و"الاخر" الاوروبي في رواية "شرفات بحر الشمال" **لواسيني الاعرج؟**

تتفرّع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات نذكر منها:

1. ما هي الخصوصية التي تطبع الكتابة عن "الاخر" في الخطاب الرّوائي الجزائري؟

2. كيف صاغت لنا الأعمال الروائية الجزائرية العلاقة بين "الأنا" الجزائري و"الاخر" الاوروبي في ظل ما يربط الطرفين من تاريخ صدامي؟

3. ما هي العوائق التي تحول دون محاولة استيعاب "الاخر"؟ ولماذا تتحوّل كل محاولة للاستيعاب إلى ضرب من ضروب الاستلاب؟

4. كيف قدّمت "شرفات بحر الشمال" "الاخر" من خلال تحليلها للجوانب السلوكية والأبعاد الإيديولوجية لشخوصها؟ وفيما يختلف هذا "الاخر" عن "الأنا"؟

ومن أجل الوصول بهده الدّراسة غلى النتائج المرجوّة، استعنا بالمنهج الوصفي التحليلي الذي اعتمدناه في مساءلة وتحليل النّصوص الرّوائية، وذلك لمناسبته لطبيعة البحث القائم على الاستقراء والتحليل، بالإضافة إلى المنهج المقارن الذي وظّفناه في عقد مقابلة بين حضور "الاخر" في الرّواية الجزائرية عموما، وفي رواية "شرفات بحر الشمال" على وجه الخصوص.

خصّصنا الجزء الأوّل من دراسة اشكالية الأنا والاخر في الخطاب الرّوائي الجزائري، من خلال الوقوف بداية عند حدود مفهومي الأنا والاخر في الخطاب الفكري العربي والغربي، والبحث في كيفية انتقال هذه الإشكالية إلى حقل الدّراسات المقارنة عن طريق ما يسمّى بعلم الصورة أو "الصورائية" لتقتحم بعد ذلك مجال الإبداع الرّوائي العربي على يد مجموعة من الروائييّن العرب الذين أولَوا هذا الموضوع الأهمية التي يستحقّها في فترة شهدت إقبالا متزايدا من المثقّفين العرب على الانتفاخ على ثقافة الاخر، أسفرت عن ميلاد نصوص وكتابات عربية اهتمّت بتقصّي تجلّيات هذين المفهومين في السّاحة الفكرية و الأدبية العربيّة، قام بها المهتمون بقضايا النقد، والمشتغلون بالإبداع الرّوائي على وجه الخصوص.

بعد ذلك انتقلنا إلى دراسة هذه الإشكالية في الرّوائية الجزائرية من خلال البحث في علاقة موضوع "الأنا" و"الاخر" بظاهرة "الكولونيالية" التي شكّلت تيمة مركزية وسمت الخطاب الرّوائي الجزائريّون إلى ترجمة الواقع الجزائري الذي يعكس

الهيمنة التي يفرضها "الاخر" المستعمر على "الأنا" المستعمر، وذلك من خلال تسليط الضوء على عدد من الأعمال الرّوائية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية.

لننتقل بعد ذلك للحديث عن تمظهرات هذه الإشكالية في الرّواية الجزائرية المكتوبة بالعربية التي سعى من خلالها الرّوائي الجزائري بعد الاستقلال إلى تأسيس تجربة روائية متكاملة تعمل على تكريس خصوصّية للخطاب الرّوائي، راح يبحث فيها عن أشكال يثبت من خلالها هوّيته ويؤسّس لتجربة روائية يبرز من خلالها شخصيّته الادبية المستقّلة، وذلك بتناول مواضيع تتماشى مع الوضع الرّاهن وما يطرحه من قضايا مختلفة كظاهرتي "الهجرة" و"العنف المسلّح، ولم نلتفت إلى بقيّة الجوانب الأخرى إلاّ بالقدر الّذي يخدم الموضوع الأساسي للدّراسة. أماّ الخاتمة فقد تضمّنت عرضاً لأهم النتائج التي توصّلت إليها هذه الدراسة.

وفي الحقيقة إنّنا لا ندّعي من خلال دراستنا هذه أنّنا قد نصل إلى حلّ لهذا الوضع المتأزّم الذي ما انفكّ يبرز الطرفين "الأنا" العربي و"الاخر" الغربي كقطبين متناحرين، إلاّ أننا نعتبر ذلك أهم مسؤولية قد يضطلع بها الباحث الجامعي في مجال الأدب المقارَن.

لقد فرضت قضية الاغتراب وموضوع الهجرة نفسها على الرواية العربية المعاصرة عموما، والرواية الجزائرية بصورة خاصة باعتبارها أحد الروافد الهامة للفكر الإنساني وإحدى أهم مكونات الواقع الاجتماعي، النفسي، السياسي والاقتصادي للفرد والمجتمع، وباعتبارها أيضا اشكالية مرتبطة بحياة فئة عريضة من الناس يعيشون التمزق والضياع في ديار الغربة التي اختاروها أو فرضت

عليهم قصرا بسبب ظروف المجتمع أو الأوضاع الاقتصادية الصعبة في موطنهم الأصلي

وكثيرا ماغيرت أعمال الروائية عن حالة البطل المأزوم في غير واقعة، بطل يجد نفسه أمام قوى طاغية ترتبط بالمكان والسلطة، ومن هنا تتشكل لديه أزمة هوية حادة سببها له هذا الواقع الاجتماعي والثقافي الجديد، هذا الواقع الذي يهيمن عليه الاخر هيمنة تامة، فيجد المهاجر العربي نفسه ضمن مناخ ثقافي جديد يضطر مجبرا على التكيف معه، وهنا تثار مسألة الهوية الثقافية التي ترتبط بالاستعداد الانفتاحي على الثقافة الغربية، وبقدر ما استطاع المهاجر الانفتاح على هذا الواقع الثقافي الجديد بقدر ما ازداد تواصله مع الأخر[1]

وغياب هذا التواصل الإيجابي فان أزمة الذات ستظل مستمرة، وسيظل الأخر مصدر تهديد لها، ومن هنا فقد أصبحت الذات مهددة من ناحية المحافظة على أصالتها وهذا يعني التخلف عن الاخر وربما الموت، أو القدرة على التغيير والانفتاح على الاخر مما يحقق لها التواصل والتعايش معه .

ونحن اذ نرى بصرورة انفتاح المهاجر على ثقافة الاخر، فإننا لا نقصد بذلك انسلاخ المهاجر العربي عن هويته الثقافية، وهو ما يهدف اله الاخر ضمن مركزيته التي تسعى الى غربنة الاخر العر بي ،ذلك أنه وجد تلازم واضح بين

[1] ينظر، نهال مهيدات، الاخر في الرواية النسوية ، دار عالم الكتب الحديث، لبنان ،2008، ص 40.

الاخرنة والتأخرن[1] والنزعة الاستعمارية، فكلاهما يمارس قوة معينة مع اختلاف في كيفية ممارسة هذه القوة، اذ لم تعد القوة تمارس من فوق (قوة كولونيالية) بقدر ماهي فرض لنموذج ثقافي و حضاري على الاخر.

ولعل المتتبع للأعمال الروائية الجزائرية التي تناولت موضوع الهجرة ،سيلاحظ أن أغلب هذه الروايات قد قدمت لنا الاخر الأجنبي في صورة الاخر العصري الرافض لوجود الاخر العربي في بلاده، لذلك نجده يستغله بكل الطرق الممكنة .

ومن هنا قدمت لنا هذه الأعمال صورة نمطية ظلت مسيطرة لفترة طويلة عن الانا الجزائري فهو الشخص الذي يقبل الاعمال الوضيعة التي لا يقبلها الاخر الفرنسي، كالعمل لساعات طويلة في المناجم و المصانع، وهو الذي كثيرا مانجده يغير اسمه العربي و يلجأ الى أسماء فرنسية بحتة ليخفي جنسيته الجزائرية وقوميته العربية ،ذلك أن العربي عموما و الجزائري بصورة خاصة هو شخص مرفوض في فرنسا، يتعرض لمعاملة تمييزية و عنصرية سواء في المدارس أو أماكن السكن أو العمل أو حتى الأماكن العمومية كالحدائق والمقاهي.

ولعل من بين أهم النصوص الروائية التي جسدت هذه المعاناة رواية شرفات بحر الشمال **لواسيني الاعرج** التي تحكي لنا قصة المغترب ياسين الفنان الذي هاجر وطنه بعد احداث العشرية السوداء وتماما بعد قانون الوئام المدني وبعده

[1] الاخرنة والتأخرن: هي جعل الشخص أو الجماعة البشرية اخر، أو صيرورة الشخص أو الجماعة اخر أي مختلفا ينظر، ارفن جميل شك، الاستشراق جنسيا، تر: عدنان حسن شركة قدس للنشر ط1 ،بيروت – لبنان، 2003، ص13.

جاءت المصالحة الوطنية التي تقر بقانون عفى الله عما سلف للإرهابيين فلم يحتمل ياسين هذه الخطوة ليجد نفسه في ارض غريبة محاطا بمجموعة من المغامرات النسائية التي تحمل معها في كل مرة الحنين الى الوطن.

وما يمكننا ان نستخلصه الان هو أن تناول الرواية الجزائرية للعلاقة بين الانا والاخر كثيرا ما نجده يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بمواضيع الهجرة و الاغتراب، ويحيل بشكل تلقائي الى مسألة الهوية المأزومة ويستدعي موضوع العشرية السوداء الذي يتخذه مرجعا تاريخيا يؤطر العلاقة بين الانا الجزائري والاخر الفرنسي.

ولكي تخرج الجزائر من حالة الركود الاقتصادي والاجتماعي والثقافي التي كانت تعيشها غداة العشرية السوداء سعت الى تحقيق مشروع بناء مجتمع متحضر وعصري ،هذا البناء الذي يقضي دون شك اعتماد معرفة الانا قاعدة أساسية ينبغي الاهتمام بها في بناء المجتمع، والمقصود بمعرفة الانا هنا: "وجوب حصر ومعرفة الأصول الحضارية والثقافية والتاريخية التي ينشأ بموجبها المجتمع، وتكون سببا في تطوره أو تدهوره"[1] فمن هذه الأصول تتشكل صورة المجتمع وأفكاره وعاداته اليومية .

اما القاعدة الثانية التي تعتمد عليها بناء المجتمع فهي معرفة الاخر: "ويعتبر بعد الاخر و معرفة المسافة التي بيني و بينه هي القواعد التي بنى عليها

[1] واسيني الاعرج، تجربة الكتابة الواقعية، الطاهر وطار انموذجا، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط،الجزائر 1989ص58.

المجتمع المتحرك الذي هو أولا نتاج عالمنا الداخلي ،ثانيا هو نتاج عالمنا الداخلي، وثانيا نتيجة لعملية تطورية للتداخل الحاصل بين الانا والاخر، وعالمنا الداخلي مو مبعث الأفكار المنتجة والمحافظة على المجتمع ."[1]

ونقصد بالأخر هنا المجتمع الأجنبي المتميز عن المجتمع الأصل، والذي يعتبر عنصرا يحرك المجتمعات ويطورها، فبتعارض الأفكار والقوانين والقيم المؤسسة لكا منهما، ينشأ شبه صراع معنوي وداخلي يجعل هذين المجتمعين يسعيان دائما للحفاظ على كيانهما، وكل مجتمع يرغب في تجاوز المجتمع الاخر بإنتاج أفكار جديدة، واستحداث قوانين تساير تطوره.

واذا عدنا الى المجتمع الجزائري نجد بأنه لم يتحقق ذاته ويؤكدها واقعا،الا حين أدرك أنه مختلف عن الاخر الأوروبي اختلافا كبيرا، فالأوروبي هو أجنبي عن هذه الأرض وعن حضارة هذا الشعب وتاريخه وثقافته ودينه، وبالتالي فهو دخيل على المجتمع الجزائري ومرفوض.

وانطلاقا من مبدأ أن الاخر الأجنبي مرفوض في غير أرضه، فان الانا الجزائري مرفوض في الأراضي الاوربية، كما هي حال الفرنسي الذي صار مرفوضا من قبل المجتمع الجزائري الذي ثار ضده وأخرجه من أرضه.

1) Suzie Guth, une sociologie des identités est-elle possible, Actes du colloque, sociologie IV Tome III ,édit L'Harmation,1994,p21

فلا عجب اذن أن يعاني المهاجر الجزائري من رفض الاخر الأوروبي الذي يراه عنصرا دخيلا ينبغي ابعاده عن الأراضي الأوروبية، وان لم يتحقق له ذلك فعليه استغلاله بأبشع الطرق انتقاما منه على طرده من أرضه.

ولعل رواية شرفات بحر الشمال الي نحن بصدد دراستها هي خير اثبات على تقبل الاخر الأوروبي للانا الجزائري، الرواية كتبت سنة 2003 هي شهادة عما يلاقيه المهاجر الجزائري من ترحاب وحب من قبل الاخر الأوروبي والمتمثل في المرأة، كما انها تجسيد حي وواقعي لسلسة من حالات الحب التي يعيشها المغترب في مجتمع الاخر، هذا المجتمع الذي يختلف عن مجتمعه دينا، حضارة، ثقافة وفكرا، وهي الفكرة التي جاءت نقيض أغلب الكتابات التي كانت تكتب عن مدى رفض الاخر الأوروبي للانا الجزائري.

اذا رواية شرفات بحر الشمال التي بين أيدينا تحكي سيرة الانا ويومياتها في فضاءات الاخر، اذ لم يقدم لنا **واسيني الاعرج** الاخر الا ليوضح طبيعة العلاقة التي تربطه بالانا، فهو لم يقصد في نصه الروائي تقديم صورة انبهارية عن الاخر الغربي، هذه الصورة التي كثيرا ما ترتبط بالمخايل، وانما قدم لنا الاخر في حدود علاقته الواقعية بالانا ،لذلك كان التركيز في الرواية على الانا بدل الاخر الذي نجد حضوره في الرواية يقترن بالمكان أو الفضاء العام للرواية، ذلك أن بطل الرواية ياسين قد قصد هولندا زمن المسالحة الوطنية و عاش هناك فنانا تشكيليا محترما ونقل لنا الجزء الأكبر من الرواية يومياته في هذه الأرض الغريبة عنه ،هذا الفضاء الجديد المختلف الذي جعله يحتك بالآخر مجبرا غير مخير، ومن هنا صار الاخر الأوروبي ملازما له.

ولأن فه الاخر وادراك أبعاده المختلفة لا يتأتى الا من خلال معرفة معمقة بالذات، حيث ان اهمال الذات و تجاوز أطرها المعرفية لا يؤدي الة فهم الاخر فهما دقيقا، بل يؤدي الى الانبهار به والتلقي الاعمى لكل ما ينتجه، كان من الضروري على الانا المصالحة مع ذاتها ويبر أغوارها لتكتشف معدنها الأصلي وبذلك تستطيع تحديد وضبط علاقتها مع الاخر .

ولما كان الامر كذلك كان من الضروري أن نجعل من دراسة تمظهرات الانا في الرواية نقطة الانطلاق التي توصلنا في الأخير الى تحديد العلاقة الى تجمعها بالاخر، فكيف قدم لنا الكاتب الانا الجزائر في خطابه الروائي؟ و بماذا تميزت علاقة الانا بالاخر الأوروبي؟ وماهي المبررات الي يقدمها نص الرواية لرفض الاخر للانا الجزائري؟

برى **الظاهر لبيب** بأن العربي عندما يصبح في موضع مساءلة أو في موضع المنظور اليه فأول ما يعبر عنه هو عدم ارتياحه، يختار من النظرات أكثرها تشويها لصورته ...، انه يذكر بصورة تلك المرأة الجميلة الى روى **مونتيسكيو** أن مشيتها مشية مستقيمة و لكنها تعرج كلما نظر اليها أحد.[1]

وقد أكد **سارتر** أن الكينونة الذاتية تعتمد بطريقة مخجلة على نظرة الاخر وتحديقه والاخر بالنسبة له هو غير الذات ،كيان مستقل عنها، أما بالنسبة لا كان

[1] الظاهر لبيب ،صورة الاخر–العربي ومنظورا اليه–، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان،2003، ص27.

Lacan فهو ما أسماه بمرحلة المرآة [1]، وهي في جوهرها صراع بين الذات والذات وبين الذات ومحيطها الخارجي، ولكن الاخر من وجهة نظر **بول ريكور** هو أحد مكونات الذات، وان الذات عينها كأخر يوحي منذ البداية بان ذاتية الذات عينها تحتوي ضمنا الغيرية الى درجة الحميمية [2].

و بناء على ما تقدم يمكننا تقسيم علاقة الانا بذاتها، بالعالم وبالأخر الى ثلاث لحظات:

أ–لحظة مواجهة الذات لذاتها: حيث تتجوهر الذات وتجعل هويتها تتشكل عن طريق التطابق مع الانا الواعي و تتميز عن العالم بالتعالي عليه والنظر اليه من موقع منفضل .

ب–لحظة مواجهة الذات مع العالم: حيث تتنازل الذات عن تعاليها وتنخرط في العالم وتعيش تجربة الحياة وتنفتح على ابعادها المختلفة، وتتغير بموجبها.

ج– لحظة مواجهة الذات للاخر: وتتم عن طريق الوسيط اللغوي، وهنا الانا ليست في مواجهة ذاتها المتماهية فحسب ،بل هي أيضا في مواجهة الغير ولا تكتمل كينونتها الا في ضوء العلاقة مع الاخر.

---

[1] مرحلة المرآه: هي المرحلة التي يرى فيها الطفل نفسه في المرآه فعليا أو استعاريا لأول مرة كأخر، ككيان متكامل الصورة قبل أن يتمكن من السيطرة على كيانه أو من اجتياز صورة لذاته، ويبدأ معها وعيه بالذات كوعي متكامل، فالذات ليست معطى جاهزا، ولكنها شيء يكتشفه الطفل ويتعلمه من خلال صراعه مع ذاته وتفاعله مع الاخرين، ينظر لغة الذات، السيرة الذاتية والشهادات، مجلة ألف،ع 22،2002، ص12.

[2] بول ريكور،الذات عينها كأخر، تر جورج زينات، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط1، بيروت–لبنان،2005 ص27.

واذا عدنا الى نص الرواية نجد أن الأنا الجزائري قد خبر كل تلك اللحظات فبطل الرواية ياسين كان في صراع مستمر مع ذاته ،حيث كان يشعر بالذنب تجاه حبيبته فتنة و أيضا تجاه أخيه الذي قتل بايدي الارهابين ،و في صراع دائم مع الاخر المتطرف الذي كان يرفضه أينما ذهب و كذلك المكان برفضه بكل تجلياته.

و اذا بحثنا في علاقة الانا ب الفضاء نرى بان الفضاء بأمكنته المختلفة أساس لتصورنا وللواقع، كما انه عنصر ضروري لتحديد معالم الهوية، فردية كانت أم جماعية فالذات تتكشف في الفضاء أيا كان الهنا الذي لا تمحي أثاره، أو الهناك الذي يمثل الاختلاف[1] وبمعنى اخر المكان شرط للخبرة الإنسانية، لاكتشافها وبلورتها، واكتشاف الذات من خلالها.

ان المرء ينخرط في الأمكنة ضمن سلسلة علاقات استطرادية من التضمين والاستبعاد، الجذب والطرد، القبول والرفض وفق ما يراه **نيكولاس انتركين** Nicolas Entrikin "اننا كممثلين نقع دائما في مكان و زمان تقام فيه أفعالنا في احساسنا بالهوية، ومن ثم احساسنا بالمركزية "[2].

وبما أن سياقات الأفعال شرط للإحساس بالهوية والمركزية على حد سواء، فان شخوص رواية شرفات بحر الشمال كانت تعرف هويتها الحقيقية ومركزيتها، لذلك نجد الانا العربي / الجزائري في الرواية في أغلب الأحيان هو الطرف

[1] نهال مهيدات، الاخر في الرواية النسوية، ص100.

[2] أرفن جميل شك، الاستشراق جنسيا، ص84-85.

المعاين، الناظر، المكتشف للآخر الأوربي، في حين يبدو الاخر فيها هو الطرف المعين، المنظور اليه، المكتشف.

ذلك أنه من الطبيعي أن يسعى الطرف الدخيل في بيئة مختلفة الى اكتشاف محيطه بمحتوياته المختلفة، (أشخاص، أمكنة...)، وهو في هذا الاكتشاف ذاته وقدراته المختلفة وهويته الأصلية.

وليس مستغربا أن يشكل فضاء الاخر 'باريس'–المكان الذي دارت فيه من أحداث الرواية –المنفى أو الحبس الكبير[1] على حد تعبير **ميشيل فوكو**، بحيث يرتبط الفضاء المكاني الذي ينفى اليه الغرباء بالتهميش المرتبط ليس فقط بالأوصاف المميزة للجماعة، بل أيضا لثورة الأمكنة الخاصة مشاهد التي تعبر عن الوشع الهامشي للجماعة الغربية.[2]

هكذا هي أمستردام المنفى الاختياري لأولئك الجزائريين المهاجرين الى فشاء مغايرّ، من أجل العمل وتحصيل لقمة العيش حينما كانت الجزائر عقب الاستقلال تعاني من الفقر والبطالة والركود الاقتصادي، أو عندما كانت الجزائر زمن الحرب تعاني ظلم وسيطرة الاخر المستعمر على أرضها وممتلكاتها.

لقد كان للمكان إذا حضور قوي في الرواية، ففي فضاءات أمستردام المختلفة كان يجري ذلك الصراع المرير بين الانا والاخر، في هذه الفضاءات عاش ياسين تعاسته وضياعه ويومياته التي باتت متشابهة، فارغة، يغلفها شعور

[1] ينظر المرجع نفسه، ص109.

[2] المرجع نفسه، ص .110

رهيب بالاغتراب المكاني، في هذه الشوارع والمقاهي والأبنية الباريسية الباردة كان يلاحقه الرفض والتهميش والاحتقار.

وفيما يأتي سنحاول أن نوضح العلاقة التي جمعت الانا والاخر بالمكان وتبين هذه العلاقة.

نص رواية شرفات بحر الشمال الذي بين أيدينا كغيره من النصوص التي تناولت العلاقة الحضارية و الجدلية المعقدة بين الشرق والغرب، يحتل فيه المكان سلطة قوية كأحد أهم مكونات الخطاب الروائي، اذ يشكل مسرح الصراع الحضاري والتاريخي و السياسي الدائم بين الشرق والغرب، بين أمستردام هذا الفضاء الذي وظفه الكاتب ليقدم لنا صورة عن الاخر مختلفة تماما عن الصورة النمطية التي اعتدناها عليه بكونه مستغلا ورافضا، وبين الجزائر هذا الفضاء الذي تركه معظم الجزائريين غداة الإعلان عن الوئام المدني بسبب ما احسوه من اجحاف و ظلم في حقهم كمدنيين، ليجدو أنفسهم ضائعين ومشردين في شوارع وطنهم التي لا تشبههم، متكومين كجثث غابت عنه الأرواح تحت الجسور...

ان رواية شرفات بحر الشمال التي تحكي يوميات الانا الجزائري المرفوض في فضاءات الاخر، تسعى الى الكشف عن مستويين: مستوى يتم النظر فيه الى العنوان باعتباره بيئة مستقلة لها انشغالها الدلالي الخاص، ومستوى تروم فيه الإنتاجية الدلالية لهذه البنية تخطى حدودها متجهة الى الأثر السردي فشرفات بحر الشمال هو عنوان مركب من تلات الفاظ تحيل مباشرة الى الضفة الأخرى اين يقلنا بحر الشمال الى أوروبا.

يعد عنوان هده الرواية عتبة تساعد على الولوج الى عالم النص الذي نجده ينفتح على عدة أصوات، وهم ما يجعلها رواية بوليفونية، ذلك أن كل شخوص الرواية، هي شخوص مركزية تحكي عن نفسها بلغتها وصوتها الخاص، ولا يشكل السارد سوأنه يعتمد الى فضح نفسية البطل ياسين عن طريق سلسلة الاسترجاعات والتأملات الداخلية التي وظفها الكاتب بكثرة في خطابه الروائي ،اذ كثيرا ما كان البطل يعبر عن احتقاره لذاته من خلال استذكاره لمواقف مخزية مرت به في ماضيه: "عزيز جرح كلما حاولت رتقه، انفتح من الجهة الأقل انتظارا مثل صاحبه، اليوم أحاول ان انسى انه مات، اكتب وأحاول ان اجبر نفسي على نسيانه" [1].

وإذا بحثنا عن سبب حالة الضياع والتشرد التي كان يعيشها البطل ياسين في فضاءات أمستردام، نجد هذا الشعور بانعدام القيمة والاحتقار الدائم للذات تعود أسبابه الى الماضي، فالبطل قد غادر وطنه دون أن يفكر فالعودة "ماهي الصدفة العجيبة التي شبكت كل شيء، زغاريد عودة القتلة باغتيال عزيز وعمي غلام الله بالدعوة الى أمريكا ثم هولندا ؟ أي يد خططت لهذا القدر الاستثنائي ولهذه التفاصيل التي بدون اكتمالها ربما لما خرجت؟ لا أدري ولكنها كلها تكاتفت لتدفع بي فجأة نحو محيط لا لون لمائه سوى رماد السماء...لقد خسرت كل شيء عن سبق إصرار وترصد" [2].

[1] رواية شرفات بحر الشمال ص 55

[2] الرواية ص 75-76"

لقد كانت لحادثة وفاة اخيه الصغير بعيدا عنه وقعها في نفس البطل، لقد ظل يشعر بالاسى طوال فترة مكوثه في أمستردام رغم مرور السنوات، لقد كان الشعور بالحزن يعتصر قلبه.

" بعد عشر محاولات متكررة من الإخفاق في استدراج النوم صممت أن أقوم من فراشي و أن لا أحاول مرة أخرى الا عندما يأتيني هو بنفسه. كانت وراء أمستردام جنازات المدن الأخرى و ضباب الاحران التي لا تتبدد وراءها سيلا من الرعشات الغامضة . " [1]

ولعل شعوره بالذنب وعدم المسؤولية هو ما جعله دائم الحزن، وهو ما جعله ناقما على سياسة الوئام المدني والمصالحة الوطنية فعاش حياته انسانا مهزوزا دائم الاضطراب والتردد، ضائعا لا يكاد يدخل مكانا حتى يخرج منه ليقصد مكانا اخر: "كم تنقصك من الروح أيتها البلاد المؤدية لتصيري بلادا بلا منازع وبلا أقنعة، بلادا كبقية البلدان، تحب ناسها وتكرم أحبتها من حين لأخر حتى لا تنساهم ولا ينسوها. أيتها البلاد التي نكست كل رايات الفرح ولبست حدادها وانتعلت أحذيتها القديمة التي أذلت فرحتها، لا تكثري الدق، لم أعد هنا" [2]

من هنا نستنتج أن شعور البطل بالضياع لا يعود فقط الى كونه يعيش في فضاء أجنبي غريب عنه، وانما يعود أيضا الى انه قد فقد كل ما يربطه بوطنه الجزائر فقد قرر أن يذهب ولا يلتفت إلى الوطن والحب، ولكنه يحمل كل شيء

[1] الرواية ص 144.

[2] الرواية ص 87".

معه، ويعيش ما تبقى من عمره في مواجهة حقيقية مع ذاكرته وكائناتها الجميلة، مع ذلك الماضي وعذاباته المورقة في الروح والجسد، يعيش فيه وضمنه، ويحمله معه إلى كل بقاع الدنيا، يحمل رسائله وأفكاره وصدى العابرين في مقلته الزائغة بالعشق والولع، والوعي الإنساني العظيم، ويبدأ ذلك الماضي في التجلي والحضور في الأمكنة الجديدة؛ منذ أن بدأ بحثه عن حبيبته "فتنة" التي سبقته من عشرين عاما لأمستردام، ولكنه وهناك تحديدا يجد ذاته في مواجهة أخرى أكثر دهشة وغرابة؛ إذ يتعثر بـ"نرجس" الصوت الذي عشقه طفلا، وعلمه كيف يكتب، وكيف تصير اللغة وطنا وعشقا، يجدها بعد أكثر من ثلاثين عاما.

وفي ختام الرواية؛ وبعد حوارات كثيرة داخلية وخارجية، بعد النحت في ممرات اللغة، وأغشيتها وأدمعها وضحكاتها، وتقليبها في مداراتها الكثيرة يمنة ويسرة وذات الحياة، وذات الموت، يترك لنا واسيني نهاية معلقة على أطر الحياة، وليس على أطر الحكاية فقط، يترك القارئ بعد هذه المعاناة (الرواية) الجارحة والموغلة بأشد المعاني جمالا وروعة، ليتدبر فكرة الخلاص من براثنها العظيمة والجميلة، كما يتدبر فكرة محاولة تملصه من ماضيه الخاص بأقل الحالات فداحة، ونبلا.

خاتمة:

وبناء على ما تقدم نستخلص غلبة واضحة للجوانب السلبية على الصورة أو الصور المستنبطة من الرواية، الامر الذي يستدعي السؤال البسيط: لماذا؟ نقول إذا ما افترضنا خصوصا أن هذه النظرة أو الرؤية تمثل نظرة العربي أو رؤيته للغربي على ارض الواقع، فان الإجابة على هذا لربما تحتاج الى دراسة أو دراسات

أدبية وفكرية وسياسية واجتماعية، ولكن لا باس أن نطرح افتراضات يشكل بعضها وجهات نظر نتبناها، بينما تحتاج الأخرى الى تأمل ضمن تلك الدراسات.

أول هذه الافتراضات عبرت عنه الرواية المدروسة نفسها، وهو ان هناك صراعا، ربما كان حضاريا أو تنافسيا أو استعماريا... الخ لا يخبو أو على الأقل. لا يختفي في كل لقاء بين الشرق والعرب والان. وبعد ان تعرفنا على اشكال اللقاء بين الشرق والغرب وما طرحته من رؤى عن الغرب وعن اللقاء به في الرواية التي درسناها، هل يحق لنا ان نسقط ما رأيناه فيها على واقع لقاء العرب والغرب وما ينفرز عنه، لتكون رؤى الروايات هي بدرجة ما رؤى الواقع؟

ان هذا، في الواقع، يحيلنا الى تساؤل أوسع أو اشمل وأسبق، وهو هل يحق لنا مقابلة عوالم الرواية بما تشتمل عليه من شخصيات وأفكار ومواقف بعالم الواقع بأناسه وافكارها ومواقفه؟ بل هل يحق لنا مقابلة المجتمع المتخيل للعمل الفني او الادبي بالمجتمع الحقيقي؟ نعتقد اننا إذا أردنا الموقف النقدي الخالص، واذا اردنا جوابا نقديا خالصا على سؤالنا، فان هذا الاسقاط لا يكون امرا صائبا غالبا، مع انه لا يخلو من المشروعية، خاصة اذا ما تخطينا–كما تخطى النقد فعلا ذلك – القول بان العمل الفني انما هو انعكاس للواقع، ولكن في موقفنا هنا، حيث انطلاق الروائي غالبا من الواقع بل أحيانا من تجاربهم الذاتية، يتسع هامش المشروعية الذي اشرنا الية، بل يكون مبررا تماما فعل ذلك. خصوصا ونحن نتعامل ضمن ما نتعامل معه في هذه الرواية مع شخصياتها بشكل خاص، وهي شخصيات نفترض ان تكون بدرجة او بأخرى، ومهما ابتعد المتخيل عن المبدع في ظل تحييد حضور المؤلف او تغييبه، والذي هو – نعني المؤلف – بدوره وبدرجة أو بأخرى من أناس

المجتمع الذي ينتمي إليهم، وهم هنا العرب بالطبع. وهكذا وانطلاقا من تبنينا لهذا الموقف، لابد ان تعبر المواقف والرؤى التي تنطوي عليها الرواية عن مواقف العرب ورؤاهم، على الأقل جزئيا.

يبقى لنا بعد هذا كله ان نتساءل مرة أخرى، ولكن ربما بشكل أكثر صراحة: هل تقدم الرواية التي درسناها ومضامينها، واللقاءات بين الشرق او العرب والغرب كما قدمتها لقاء الشرق والغرب والمواقف منه حقيقة؟ هنا نطرح هذا التساؤل، ولكننا لا نجيب عليه، بل نترك ذلك للقارئ وقد عرف الرواية وخبر روايات أخرى وعرف طروحاتنا وافتراضاتنا، وخاصة ان كل ما نخرج به، لا من دراسة رواية تعاملت مع واقع ما فحسب بل من أي عمل ادبي، لا يعني بالضرورة صحيحا أو متفقا مع ما يخرج به الاخرون.

قائمة المصادر و المراجع:

1. Suzie Guth, une sociologie des identités est-elle possible, Actes du colloque, sociologie IV Tome III ,édit L'Harmation,1994,p21
2. ارفن جميل شك ،الاستشراق جنسيا، تر: عدنان حسن شركة قدمس للنشر ط1، بيروت – لبنان،.2003
3. بول ريكور، الذات عينها كأخر، تر جورج زينات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت – لبنان، 2005.
4. الظاهر لبيب، صورة الاخر– العربي ومنظورا اليه، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان،2003.
5. مجموعة مؤلفين، لغة الذات، السيرة الذاتية والشهادات، مجلة ألف،ع 22، 2002.
6. نهال مهيدات، الاخر في الرواية النسوية، دار عالم الكتب الحديث، لبنان،2008.
7. واسيني الاعرج، تجربة الكتابة الواقعية، الطاهر وطار انموذجا، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط ، الجزائر،1989.
8. واسيني الأعرج، شرفات بحر الشمال، دار الآداب، بيروت، ط ،2001.